مستقبل الإسلام في ضوء التحديات الراهنة

١- مقدمات ضرورية

لا يكاد أحد يجادل في أن الطرفين، المسلم والآخر، شاركا في تقديم صورة غير موضوعية عن الإسلام.. صورة لم تكن بمستوى المشروع العقدي الحضاري الذي جاء هذا الدين لكي يحرّر به الإنسان والعالم، ويعيد صياغتهما بما هو أكثر توافقًا وانسجامًا مع إنسانية الإنسان ومغزى الوجود البشري في الأرض.

فمنذ عصور انكسارنا الحضاري، عبر القرون الأخيرة، وعوامل السوء تتجمع في ديارنا، بما صنعته أيدينا، لكي تحفر خندقًا بيننا – كأمة – وبين هذا الدين بأبعاده وحيثياته كافة.. وراح هذا الخندق يزداد عمقًا واتساعًا بمرور الأيام.. أمة قزمة إزاء مشروع عملاق أكبر من حجمها بكثير!

وما لبث الاستعمار، بصيغتيه القديمة والجديدة، أن فرض هيمنته على جغرافية عالم الإسلام، ومارس مباشرة – أو من خلال السلطات المحلية التي نصبها في عواصمنا – واحدة من أبشع صيغ القسر والاستلاب، لتأكيد فك الارتباط بين المسلمين وبين عقيدتهم ومشروعهم الإنساني الكبير.

وبرؤية (هوبزية) تعتمد العنف والتطرف وسحق الطرف الآخر مارس الاستعمار ووسطاؤه من حكام الديار الإسلامية – بل حتى النخب المثقفة والأحزاب السياسية التي دانت لفكره بالولاء – إرهابًا قلّ نظيره في التاريخ.

وعلى المستويين الخارجي والداخلي وجد المسلمون أنفسهم، شعوبًا وجماعات، إزاء ما يسمى (بإرهاب الدولة) الذي لا تكاد تبلغ عشر معشاره كل أنماط العنف والتطرف التي يسميها الإعلام المضاد بالإرهاب!

في الجهة الأخرى، لم تتح للغربي الفرص المفتوحة للاطلاع على حقيقة هذا الدين وإدراك رؤيته التحريرية ومشروعه الحضاري، وتأكيده على قبول (الآخر) والتعايش معه.

ثمة نوافذ كانت تنفتح بين الحين والحين للاطلاع على الحقيقة الإسلامية نبيًّا وقرآنًا أو عقيدة أو شريعة أو حضارة أو تاريخًا.. وكان هذا – على ضيق فضائه – يدفع الآخر: مثقفًا أو مفكرًا أو عالمًا أو إعلاميًّا أو سياسيًّا، إلى إبداء دهشته وإعجابه بهذا الدين، وربما الانتماء إليه.

ولكن المساحة الأوسع ظلت مقفلة أمام العقل والوجدان الغربيين.

ولعل الهيمنة على وسائل الإعلام ومواقع التأثير الأساسية في العالم من قبل خصوم هذا الدين وذوي المصلحة في تحجيمه، وبخاصة اللوبيات اليهودية، والقوى المسيحية المخترقة بالأساطير الإسرائيلية – كما يسميها جارودي – مارست، ولا تزال، الدور الأكبر في التعتيم وإقامة الجدران العازلة بين العقل الغربي وحقيقة الإسلام.

ومع هؤلاء، كان هناك ما يسمى بالمركزية التي تنظر بعين عوراء إلى العالم، وترى أن الحضارة الغربية بجذورها اليونانية هي الحضارة الوحيدة القديرة على التجدّد والتنامي، وأن أوربا، وأمريكا بالضرورة، هما المركز الذي تدور حول قطبه تواريخ الأمم والشعوب وحضاراتها كافة.

أى أن ثمة رؤية فوقية كانت تتحكم بصيغ التعامل الغربي مع (الآخر).. وبخاصة الأمة الإسلامية.. وقد زادها التفوق التقني الأسطوري – وبخاصة في مجال القوّة، وتفرّد القطبية الأحادية الأمريكية بقيادة العالم، وآليات العولمة المتصاعدة – عنفًا وسعارًا، فيما شهدنا نماذج منه في فلسطين المحتلة وأفغانستان والعراق.

هذا كلّه دفع الكثيرين من أبناء هذه الأمة وحكامها إلى أن يدخلوا – مرغمين حينًا وباختيارهم في أكثر الأحيان – قفص الاتهام لكي يدافعوا عن أنفسهم في قضية خاسرة ابتداءً، باعتبار أن الطرف الآخر هو الخصم والحكم في الوقت نفسه.. وباعتبار أن حيثيات الاتهام قد استكملت أسباب الإدانة، بعيدًا عن كل (الأساليب) المتعارف عليها.

إزاء هذا الوضع (اللا معقول)، إذا استخدمنا مصطلح المسرحي الفرنسي الطليعي

(يوجين يونسكو).. يتحتم على المثقف المسلم أن يمارس جهدًا متواصلا لإعادة الأمور إلى نصابها، والخروج بالعقل المعاصر من دائرة اللا معقول هذه.. وذلك بالسعي لإزاحة كل العوائق والسدود التي أقامتها العوامل آنفة الذكر بين الحقيقة الإسلامية وبين واقع المسلمين أنفسهم، من أجل استعادة الدور الضائع، أو المعطل، للمشروع الإسلامي الذي هو - في بدء التحليل ونهايته - مركب الإنقاذ الوحيد للإنسان والبشرية، وبخاصة بعدما تبيّن للناس، عبر نصف القرن الأخير، سقوط جلّ المشاريع الوضعية والدينية المحرّفة، وقدرة هذا الدين - بالمقابل – على الاستمرار وتقديم الوعد بصياغة الحياة التي تليق بالإنسان.

٢- ملاحظات في وضع الأمة

الجذور والاحتمالات الممكنة

ابتداءً.. علينا أن نتجاوز الرؤية أحادية الجانب، أو النظر إلى الظاهرة من زاوية واحدة، وحينذاك قد نجد في وضع الأمة المسلمة في اللحظات الراهنة سياقات صاعدة وأخرى منحدرة، وبمتابعة عوامل الصعود والانحدار يمكن أن نضع أيدينا – وبشكل تقريبي – على خرائط هذه الأمة في القرن الخامس عشر الهجري الذي أطلّ على البشرية منذ ثلاثة عقود .

وبالمنهج نفسه يمكن أن نتابع كل سياق، وسنجد حينذاك أن حالة الانحدار لا ينفرد بها عامل واحد، وكذلك حالة الصعود؛ فقد يطغى عامل أو أكثر في مرحلة أو بيئة ما – لسبب أو آخر – فتتضاءل إزاءه - أو تغيب - العوامل الأخرى، ولكن تبقى الظاهرة في معظم الأحيان وليدة عوامل شتى.

إن ما وصلت إليه الأمة في لحظاتها الراهنة ينطوي على تراكم في الخبرة تعلمت منه الكثير، لكنه يضم جناحيه في الوقت نفسه على حشد من الأخطاء الكبيرة والممارسات المنحرفة عن سويّتها، والتي مارست جميعًا إعاقة وشدًّا باتجاه ما يمكن تسميته بنقطة الصفر أو ما دونه، فجعلت الأمة – أحيانًا – تتقدم خطوة وتتراجع اثنتين، لكن هذا لم يكن القاعدة دائمًا، سواء بمستواها التاريخي المنظور أو الجغرافي أو الغيبي (الميتافيزيقي)،

فقد يحدث صعود هنا وانحدار هناك في اللحظة الواحدة، وقد تتجاوز خطوات الصعود مديات الانحدار، فالتاريخ كما هو معروف لا يقاس بالمسطرة والفرجال.

ومهما يكن من أمر فإن الوضع الذي بلغته الأمة منذ العقد الثاني من القرن الماضي لا تحسدها عليه أمة أخرى في العالم، بمعنى أن عوامل السلب احتلت فيه مساحات ليست بالهيّنة. وهذه العوامل لم تتشكل من فراغ ولم تبرز على حين غفلة، وإنما تشكّلت على مكث وراحت تتنامى في الكمّ والنوع عبر عقود بل قرون من الزمن لكي تصل بالأمة إلى الوضع الذي تقبل فيه بلسان الحال أو المقال الصلح مع إسرائيل مقابل فتات من الأرض المغتصبة لا تكاد ترى على الخارطة.

لابدّ إذن من متابعة الخبرة التاريخية؛ فقد يكون في عمقها الزمني ما يلقي الضوء على أسباب التخلّف والانهيار؛ ولذا فإننا سنقف لحظات عند هذه النقطة بالذات.

فمنذ زمن بعيد قد يمتد إلى تسعة قرون أو عشرة فكّ الكثير من المسلمين الارتباط بين الإيمان ومقتضياته العملية وراحوا يتعاملون معه برؤية إرجائية تكتفي بالحدّ الأدنى، وتعزل العبادة عن فاعليتها في الأرض، أي أنهم مارسوا حالة معكوسة، فبينما أراد الإيمان (الإسلام) أن يضعهم في بؤرة الفاعلية.. أن يجعلهم حاضرين في دائرة الفعل والإبداع - أي متحضرين - اختاروا هم أن ينسحبوا شيئًا فشيئًا وأن يتركوا الفاعلية لخصومهم (في الداخل والخارج) وأن يتحوّلوا بمرور الوقت إلى كمّ لا يملك قدرة حقيقية على الصيرورة والتنامي، وبالتالي لا يملك ثقله في مجابهة التحديات التي راحت تتداعى عليه من كل جانب حتى وصلت بالأمة إلى الهزيمة المؤكدة على أكثر من مستوى، وقد سبق أن حذّر من ذلك رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها**»، فلما سأله أصحابه (رضوان الله عليهم): أمن قلّة نحن يومئذ يا رسول الله؟ كان جوابه: «**بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل**».

ومع الموقف الإرجائي سادت روح التقليد والاتباع بدلا من التجديد والاجتهاد

والإبداع التي وضعت الأمة المسلمة في الصدارة بين الأمم بسبب قدرتها عبر القرون الإسلامية الأولى على الكشف والابتكار والإضافة النوعية والبحث عن الجديد في السياقات الحياتية والمعرفية كافة. ها نحن الآن في القرون التالية قبالة سيل من الحواشي والذيول والتهميشات التي لا يجد أصحابها في أنفسهم القدرة أو الثقة لتجاوز التعلّق بمعطيات السابقين وأن يقولوا ما عندهم ابتداء كما فعل الآباء والأجداد زمن تألّقهم الحضاري. ولطالما دعا القرآن الكريم ورسول الله ﷺ في حشود لا تكاد تحصى من الآيات والأحاديث إلى ضرورة العمل والإضافة والإبداع، وإلى عدم الالتفات إلى الوراء، إذا اقتضى الأمر، من أجل الاستجابة للّحظة التاريخية والإصغاء لنداءات المستقبل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة] ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزُّخرُف:٢٣] وبموازاة السلبية والتقليد كانت خيوط الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي يزداد نسيجها مساحة يومًا بعد يوم لكي يغطّي المدى الأوسع فيأكل كالمنشار قدرات الأمة واستعداداتها المتبقية ويقودها أكثر فأكثر صوب مواقع الانعزال والإتكالية والسكون.

ولقد تركت هذه العوامل الثلاثة فراغًا كبيرًا في عقل الأمة وروحها، وجعلتها تعاني مما يمكن تسميته بانخفاض الضغط الذي يسحب إليه بحكم قوانين الحركة التاريخية الرياح المدمرة التي تهب عليه من الداخل والخارج، فما لبثت أن طغت على الساحة حالات التوجّه الرهباني – الصوفي المنحرف عن سويته المعتدلة – المنسحب أكثر فأكثر من مواقع الفاعلية والحياة، وهبّت على العقول والنفوس سموم الخرافات والسحر والشعوذة والدجل والأوهام فيما سبق وأن حذّر منه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أجل ألّا يستأثر بالحياة الإسلامية فيسوقها إلى مواقع الشذوذ والانحراف.

وثمة الخطأ الذي لا يقل أهمية (والخطأ كما يقول السياسي الفرنسي تاليران أكبر من الجريمة) والذي مارسته القيادتان المتأخرتان في تاريخنا: المماليك والعثمانيون، فهما على دورهما المؤكد في مجابهة الخصم وملاحقته، أهملتا التصنيع بشكل ملحوظ ولم تستجيبا بالقدر المطلوب لتحديات التكنولوجيا الغربية وبخاصة تكنولوجيا التسليح، وراح

الفارق يتزايد بمرور الوقت بين عالم الإسلام المتخلّف والغرب المتفوّق بحيث أصبح تخطّيه أو عبوره في العقود الأخيرة بحاجة إلى معجزة تصنع المستحيل.

هذا – بإيجاز شديد – ما كان يحدث في نسيج الحياة الإسلامية فيدمر العقول والنفوس والأرواح، ويصدّ الأمة عن التحقّق بمطالب المجابهة والقوّة وحماية الذات.

ومن الخارج هبّت أعاصير أخرى لا تقل ضراوة وعنفا، لكنها ما كانت لتؤدّي مهمتها المدمّرة لو أن الأمة امتلكت الحدّ الأدنى من مقتضيات البقاء التي أكد عليها الإسلام ودعا إلى التحقّق بها صباح مساء.

لقد كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة (الخارجيين) المحملين بكل حيثيات (الغزو) بدءًا بتجاوز المطالب الأخلاقية والإنسانية التي يعرفها المسلم جيدًا في لحظات الصراع، وانتهاء باستخدام السلاح الأكثر فاعلية لسحق الخصم. كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة لمدى يقرب من ألف عام!! كانت الغزوات الخارجية تضربه خلالها الواحدة تلو الأخرى دون أن تترك له فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب أوضاعه وقدراته بما يمكنه من حماية الأرض والذات. ولقد استنزف هذا من الأمة المسلمة الشيء الكثير وأعان عوامل الشدّ والتخلّف والإعاقة على أن تزداد فاعلية وامتدادًا على حساب عوامل التقدّم والإبداع والصعود.

فمنذ أخريات القرن الخامس الهجري رمت أوربا بثقلها العالم الإسلامي تحت مظلّة الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمن، ثم ما لبثت الهجمات المغولية أن لحقت بها لكي ترمى بثقلها آسيا الوسطى، بكل عنفه وقسوته وبربريته، على مدى يقرب من القرن. وتتابعت من بعدهما الغزوات: حركة الاسترداد الإسباني (الريكونكويستا) التي نفذت، بعد انتصارها، واحدة من أبشع عمليات الاغتيال الديني والفكري والحضاري والجسدي في التاريخ.. حركة الالتفاف الإسباني – البرتغالي.. حركة الاستعمار القديم.. وصولا إلى الاستعمار الجديد (الإمبريالية) بجناحيه الرأسمالي والشيوعي وظهيره الصهيوني.

وعندما أطلّ ما يسمى خطأ بعصر النهضة بسبب من ارتباطه بالغزو الفرنسي لمصر في أخريات القرن الثامن عشر، كان الفارق في المدنية - وبخاصة تكنولوجيا القوة - قد ازدادت هوّته اتساعًا بيننا وبين الغرب، الأمر الذي يفسّر - إلى جانب عوامل عديدة أخرى - فشل معظم محاولات الإصلاح والحركات الجهادية التي صُفيت الواحدة تلو الأخرى.. لم يكن يعوزها الفكر ولا الإيمان ولا الفدائية، ولكن وببساطة تامة كان يعوزها السلاح! لقد قامت حركات المقاومة كالسنوسية والمهدية كردّ فعل ضد الاستعمار، وكان عليها أن تنوء بعبء الفارق الكبير في التسليح فضلا عن زخم الاندفاع الإستراتيجي للقوى الغالبة ورغبتها الأكيدة - المبطنة بالبعد الصليبي - في احتواء العالم الإسلامي، وعدم إتاحة أية فرصة لاستعادته أي قدر من الحيوية والنموّ والاستقلال تحت مظلّة الإسلام الذي تأكد للغرب كم أنه الجدار الأشد صلابة في مواجهة الخصم.

ثم إن أية حركة في التاريخ لا تتشكل - ابتداء - وفق شروط موضوعية، وإنما تجيء كرد فعل على حالة تاريخية، ستعاني من كثير من عناصر الخلل ونقاط الضعف التي ستكون بمثابة المقتل الذي تغوص فيه سكين الغالب.

أما الدعوات الإصلاحية غير المسلّحة فإن مشكلتها أنها - في معظم الأحيان - لم تنتشر بين الجماهير وظلّت منعزلة عن الأمة الإسلامية ومطالبها الملحة في التحقّق بالمقاومة والتحرّر وإعادة بناء الذات قبالة التفوق والاستعمار الغربي. لقد ظلت هذه الدعوات في معظم نسيجها أنشطة شبه أكاديمية.. مشاريع فكرية مطروحة على الساحة (دعوة الكواكبي مثلا) قبالة تحديات التمزيق الغربي.. وزاد الأمر سوءًا تبنّي بعض هذه الحركات أو تعاطفها على الأقل مع الأنشطة الإقليمية، وأحيانًا اللا دينّية ضد حركة الجامعة الإسلامية التي تبنّتها الدولة العثمانية قبل سقوطها الأوّل والحاسم على يد الاتحاديين.. وبالتالي فإن هذه الدعوات لم تجد لها سندًا في البيئة والجماهير الإسلامية لكي تتحوّل إلى فعل تاريخي مؤثر. بل حدث - أحيانا - أن مارست هذه الدعوات، بدرجة أو أخرى، خطأين قاتلين أكدا انفصالها عن الجماهير الإسلامية وعدم قدرتها -

بالتالي – على التحقّق التاريخي وتجاوز دفّتي (المؤلف) الذي أسرها إلى الشارع والمؤسسة والمدينة والميدان، بل إنه عزلها ووضعها في بعض الحالات في دائرة التساؤل والشبهات.

فأما الخطأ الأول فهو إقامة جسور بشكل ما مع الخصم الغالب، إمَّا على مستوى الفكر أو الممارسة السياسية، أو حتى العلاقات الشخصية. وأما الخطأ الثاني فهو أنها عزلت نفسها عن حركة الجهاد المسلّح، بل – ربما – أفتت بعدم شرعيته أو على الأقل بعدم جدواه، فكأنها طعنت ظهر الجهاد الإسلامي من الخلف لصالح الخصوم.

باختصار شديد.. إننا محمّلون بوقر التاريخ.. تراكم أخطاء الآباء والأجداد التي تمحورت عند خطيئة عدم الاستماع جيدًا لنداءات القرآن وتعاليم رسول الله ﷺ وما تنطويان عليه من كشف وإضاءة لقوانين الحركة التاريخية. لقد دعانا الله وسنة رسوله ﷺ إلى منظومة من الممارسات والقيم الفاعلة في صميم العصر: تحرير العقل البشري والإرادة الإنسانية من الكوابت، التعامل الجاد مع الزمن والكتلة المادية (المكان)، رفض التشبث الأعمى بالماضي وتقليد الآباء والأجداد، إدانة الأوهام والظنون والأهواء والسحر والخرافة، التأكيد على أهمية العقل والحواس في التعامل مع العالم، الإعلان عن مبدأيْ (التسخير) و (الاستخلاف) اللذين لن يتاح لهما التحقّق دون الكشف عن الطاقات المادية وإدراك قوانينها والإفادة من قدراتها المذخورة. هذا إلى تأكيد القرآن الكريم الواضح - في مقاطع شتى - على ضرورة التطبيق الصناعي كشرط من شروط حماية الإيمان في العالم؛ مثل المقاطع الخاصة بإعداد القوة، واعتماد الحديد لأغراض السلم والحرب، وواقعة ذي القرنين لحماية المستضعفين في الأرض، والتطبيقات الصناعية المعروفة في ظلال نبوّة داود وسليمان عليهما السلام.

لم يستمع أجدادنا في العصور التالية للنداء، وعندما استيقظنا وبدأنا فاعليتنا في مواجهة تفوّق الآخر كنا قد غيّبنا الدين في معظم مساحات حياتنا فأصبح الفعل لا برنامج له، وضاعت البؤرة التي تستقطب الأفعال ففقدت قدرتها على التأثير، وأفلتت من بين أيدينا فرصة الحضور المؤكد في قلب العالم والمشاركة في صياغة خرائطه.

* * *

والآن فإنني سأتجاوز مرحلة الصحوة الإسلامية الثانية بحلقاتها الثلاث التي غطت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وصولا إلى مشارف القرن الجديد، والتي أفادت – بدرجة أو أخرى – من أخطاء وتناقضات الصحوة الأولى في القرن الماضي – القرن التاسع عشر – وبدايات هذا القرن، أي: القرن العشرين وسأقف لحظات عند ما يسمى بالعصر الجديد الذي بدأت ملامحه تتشكّل عبر العقدين الأخيرين من القرن العشرين.. عصر النظام العالمي الموحّد الذي تكاد تنفرد بقيادته دولة واحدة، حيث ينضاف إزاء المسلمين تحدّ جديد قبالة كل المحاولات التي تسعى للنهوض بهم، وخاصة أن الإسلام أصبح – بعد انهيار الشيوعية – يمثل خط المواجهة الأوّل، وحيث يبرز حشد من الأسئلة الملحّة التي تنتظر الجواب.

ولن يتسع المجال للدخول في التفاصيل ولكنّي سأشير إلى أمرين ما دمنا بصدد قوانين الحركة التاريخية، أولهما: احتمالات دوام نظام موحّد تستقطبه قوة واحدة، وثانيتهما: مجالات العمل الممكنة للأمة المسلمة قبالة هذه الصيغة الدولية الجديدة.

إن (التوحّد) الغربي قبالة الشرق ليس بالضرورة الوجه الأوحد للصورة، فهنالك – لحسن الحظ – الوجه الآخر، إنها الثنائية التي تخترق القاسم المشترك الواحد بقوّة المذهب أو الفكر أو المصلحة وتحيله إلى تشرذمات ثنائية متصارعة داخل الساحة الغربية وفي مواجهة (الآخر) .

وعبر التاريخ الغربي كانت هناك دائمًا روما بمواجهة أثينا، والبابوية بمواجهة القسطنطينية، والإمبراطورية الرومانية المقدسة بمواجهة البابا، وفرنسا بمواجهة بريطانيا وألمانيا وروسيا، وبريطانيا بمواجهة القارة، والمحور بمواجهة المستعمرين القدماء، وأمريكا بمواجهة بريطانيا، والاتحاد السوفيتي وأوروبا الغربية بمواجهة أمريكا.

ومعنى هذا أن تفرّد قوّة غربية واحدة بالسلطان أمر يكاد يكون مستحيلا على المدى الزمني الطويل نسبيًّا، وأن الثغرة التي قد ينفذ منها الإسلام المحاصر ستتشكل، أو هي قد تشكلت فعلا بحكم قوانين الحركة التاريخية وسننها التي طالما حدثنا عنها

كتاب الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة:٢٥١].

ومعنى هذا أيضا، أن على عالم الإسلام اليوم ألا تذهب به الهزيمة النفسية إزاء التفرّد الأمريكي إلى المدى، وأن يبذل جهده لكي يتماسك وينهض، مستفيدا من حالة الثنائيات الغربية المتولّدة باستمرار.. من الثغرات التي تفتحها في جدار الغالب. وقبل هذا، من قدرات الإسلام الذاتية على كل المستويات النفسية والفكرية والإستراتيجية والاقتصادية، والحضارية في نهاية الأمر. وهي- بتميزها العقدي وعمقها التاريخي- ليست كلاما يقال ولا أنشودة يتسلّى بها المهزومون، ولكنها فاعلية في صميم الصيرورة التاريخية، قديرة في حالة اعتماد الصيغ المدروسة والمحسوب حسابها على أن تحمي الوجود الإسلامي من التفكك والذوبان. بل – لن يكون هذا من قبيل التفاؤل والتخمينات – على أن تمضي ثانية باتجاه مواقع أكثر تقدّما على خرائط العالم المعاصر، لكي تشارك في اتخاذ القرار وصياغة المصير.

إن ألفيْن من السنين تنسجان اليوم حيثيات الصراع بين الغرب والإسلام، ولكنْ في أيّ من هاتين الألفيْن قدر الغرب على أن ينتزع عن الشرق جلده المتميز؟! في أيّ منهما ألقى الإسلام السلاح وارتمى- مغلوبا على أمره- في أحضان الغالبين؟ إن ما سبق قد يكون من قبيل التعميمات التي لا رصيد لها في (الميدان) ولابدّ- إذن- من الانتقال من العام إلى الخاص والتأشير بالإيجاز الذي يتطلّبه مقال كهذا على عدد من المقترحات، أو لنسمّها وجهات نظر أولية قد تضيء الأفق المعتم أو تشعل نارا هنا وخبرة هناك:

أولا: التحقق بالمزيد من تحصين الذات العقدية والحضارية بمواجهة قوى الغزو والتفكيك الفكري، واعتماد المؤسسات الفكرية والإعلامية والتربوية والأكاديمية

كنقاط ارتكاز لعملية التحصين، وتصعيد الاستفادة من الصحيفة والدورية والكتاب والمسجد والندوة والمؤتمر في البناء النفسي والفكري.

ثانيا: التحقّق بالمزيد من الإعداد على مستوى تقنيات التسليح من أجل الوصول إلى قدر من التوازن مع التفوّق العسكري الإسرائيلي الذي تدعمه أمريكا بغير حدود، وكسر الاعتماد على نظام المصدر الواحد، والإفادة من التناقضات الدولية القائمة والمحتملة للحصول على السلاح. ووقف هجرة العقول عن طريق منح الضمانات الكافية، وتهيئة البيئة العلمية المحفزة للعطاء والإبداع، وتنفيذ برامج شاملة ودقيقة لتبادل الخبرة التقنية بين علماء المسلمين، وتأسيس دوافع جذب وإغراء للعلماء الغربيين للعمل داخل عالم الإسلام.

ثالثا: الإفادة من التناقضات والمتغيرات السياسية والاقتصادية القائمة والمتشكّلة والمحتملة من مثل: أوروبا الموحدة قبالة أمريكا.. اليابان.. الصين.. دول العالم الثالث.. فضلا عن العمق الإسلامي الذي ازداد امتدادا بانهيار الاتحاد السوفيتي.

رابعا: استخدام الموقع الإستراتيجي والخزين الاقتصادي الإسلامي كورقة ضغط ضد القوى العالمية المتسلّطة، والسعي للاحتفاظ بالخزين الاحتياطي (وبخاصة النفطي والمعدني) وعدم السماح بهدره أو استنزافه على مديات زمنية متقاربة وتحت غطاء أي مبرّر من المبرّرات.

خامسا: الاستفادة من القوى (الديموغرافية) الإسلامية داخل المجتمعات الغربية بتحويلها إلى نقاط ضغط إزاء مراكز اتخاذ القرار، أسوة بما فعلته الحركة الصهيونية، واستنادا إلى الارتباط الديني والفكري بين هؤلاء المسلمين وبين إخوانهم على مدى عالم الإسلام، وتفاعلهم الصميم مع قضاياهم المصيرية من جهة، وتمركز مساحات واسعة من المصالح الغربية في عالم الإسلام من جهة أخرى.

سادسا: التحقّق بصيغ مرنة لتوحيد الطاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية الإسلامية بصيغة كومنولث إسلامي، أو اتحادات فدرالية إقليمية، أو وحدات نوعية متجانسة على مستويي الجغرافيا السياسية والبشرية.

سابعا: تنمية وتعميق الوعي الحركي لدى القواعد الإسلامية على مستوى الجماهير العريضة بحيث يصعب توجيه ضربات قاتلة إليها، وتظل- بالتالي- بمثابة خط الرجعة المتجذّر في الأرض، القدير على حماية الذات الإسلامية بمواجهة محاولات التدمير والتفكيك والإبادة والاحتواء.

ثامنا: تصعيد وتائر تبادل الخبرة بين القوى الإسلامية الشعبية على مستوى عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، وتشكيل علاقات اتحادية ذات مفاصل مرنة بين بعضها والبعض الآخر.

تاسعا: إقامة المعابر والجسور مع القوى الحيادية أو المتعاطفة في العالم، والتي تجد في التفرّد الأمريكي نوعا من التحدّي أو القلق الذي يزعج تطلّعاتها صوب المصير.

عاشرا: التأكيد المتزايد على هويّة الإسلام الحضارية وقدرته المتجدّدة على العطاء، وفاعليته العالية في طرح الحلول المناسبة لمشكلات العالم والإنسان المعاصر، والمشاركة في المصير، فضلا عن التأكيد على عوامل التماثل والتناغم بين المعطى الإسلامي ومعطيات الغير، وبالتالي تحفيز صيغ الحوار بين الطرفين بما يخفّف، بدرجة أو أخرى، من حدّة الرؤية العدائية بينهما، ويمكنهما من التحقّق بقدر من التفاهم المشترك، حيث سيتاح للإسلام- يومها- أن يقول كل ما عنده، وأن يدخل، دونما عقد ولا حساسيات، صميم العقل والضمير الغربيين بما يقود إلى تشكّل صيغ ومعادلات جديدة في حوار الحضارات، ويمكن هذا (الدين) من تنفيذ مشاركة أكبر في نسيج الحاضر والمستقبل على السواء.

* * *

قد نرجع في وقت آخر، للوقوف عند كل واحدة من هذه الإضاءات (العشر) لجمع مفرداتها، واستقصاء أبعادها، ووضع اليد على ما يمكن أن تقدّمه في معركة الإسلام الراهنة قبالة تحدّيات التآكل والاحتواء والفناء.

إن عالم الإسلام- مرة أخرى- يقف اليوم قبالة حالة تاريخية ليست جديدة بالكلية، قد تكون جدتها في الزخم الكبير الذي تنطوي عليه حصيلة قرون طويلة من

التشكّل على مستويي الكّم والنوع، ولكنها- في الأساس- حلقة في مسلسل طويل يبدأ في (أثينا) ولكنه لن ينتهي في (واشنطن).. فها هي المتغيرات الأكثر حداثة تطلّ برأسها، ولم يصل النظام العالمي الجديد- بعد- إلى برّ الأمان: أوربا الغربية تتوحد- ربّما- قبالة أمريكا.. الجمهوريات الأوربية للاتحاد السوفيتي المنحلّ تتكتل، وقد تنضاف إلى أوربا الموحدة.. اليابان تواصل قفزاتها التقنية والاقتصادية بحساب متواليات هندسية قد تحدّ من قدرات التفرّد الأمريكي في المستقبل المنظور.. الصين ودول العالم الثالث تحركها إرادة واحدة لتحدِّي العالم الجديد الذي هيمن على مقدَّراتها، لعلها تفعل شيئا، على الأقلّ في سياق الردّ السلبي.. ثم عالم الإسلام الذي طالما دفعته التحدّيات إلى استعادة حيويته وفاعليته.

٣- التحصين الثقافي وضرورات الإستراتيجية

ونريد أن نقف قليلا عند واحدة من أكثر الضرورات إلحاحا في واقع الأمة الإسلامية ومستقبلها إذا أريد لها أن تستعيد دورها الضائع وأن تشارك في المصير.

إن السعي لوضع خارطة إستراتيجية ثقافية إسلامية في عالمنا المعاصر، كانت ولا تزال، واحدة من أشد الضرورات أهمية وإلحاحا لأكثر من سبب: فهناك- مثلا- ضرورة تجاوز التفتت والتناقض والارتطام في المعطيات الثقافية لعالم الإسلام، والتحوّل – بدلا عن ذلك- إلى التوحُّد والتنسيق والتناغم لتحقيق بلورة أكثر للذات وفاعلية أشد في زمن المسابقة الحضارية التي تحتّم احترام عامل الزمن والمحاذرة عن الوقوع في مأساة هدر الطاقة.

وهناك الانفجار المتزايد في المعلومات وتقنيات التواصل المعرفي والذي يمكن أن يكون سلاحا ذا حدين، فالذين يملكون إستراتيجية عمل ثقافي سيعرفون كيف يفيدون منه وفق أقصى حالاته المتاحة، والذين لا يملكون هذه الإستراتيجية قد ينقلب عليهم وبالا، فيزيدهم فوضى وتبعثرا واضطرابا، وقد يئول الأمر إلى ضياع كلّي لشخصيتهم الثقافية وغرقهم في بحر الثقافات الأشد فاعلية، والأكثر قدرة على التخطيط والاستشراف والإفادة من هذه التقنيات المتطورة.

وهناك – فيما عدا حالات استثنائية لا تغطي سوى مساحات محدودة – فراغ مخيف واضح لكل ذي عينين، يعاني منه عالم الإسلام في مجال التخطيط الثقافي رغم كل الظروف الميسرة للتحقّق بهذا التخطيط، الأمر الذي قد يؤدي إلى مزيد من النتائج العكسية التي توسّع الهوّة بين عالم الإسلام والعالم المتقدم، ويجعل التسارع لوضع ملامح إستراتيجية عمل مركزي شامل ضرورة من الضرورات.

فإذا ما تذكرنا أن تحدّي الحضارة الغربية المعاصرة لحضارتنا الإسلامية هو في جوهره تحدّ ثقافي، وأنه بصدد خلخلة واقتلاع هذه الثقافة من جذورها، لهذا الهدف أو ذاك، أدركنا أن مجابهة هذا التحدّي لن تأتي بطائل ما لم تعمل ضمن إستراتيجية عمل ثقافي موحد يضع يديه على الملامح الأساسية لهويّة المسلمين الثقافية، مستمدا إياها من عقيدتهم المشتركة ورصيدهم التراثي المذخور، واضعا نصب عينيه أن يكون للمسلمين مكان متميز على خارطة الثقافات في عالمنا المعاصر، لا بالاتجاه إلى الغير ومقاربته بالتقليد والتكديس، ولكن بالتميّز والأصالة وتعميق الملامح، ومؤكدا على مستقبل يكون المسلمون فيه أكثر قدرة على التأثير في مستقبل العالم، واستعادة موقعهم الأصيل الذي دعا إليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، في الوسطية والشهادة على الناس ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] مستفيدا – ما وسعته الاستفادة – من تقنيات التعامل المعرفي التي يمكن إذا أحسن التعامل معها، أن تختزل حيثيات الزمن والمكان، وأن تحقّق المقاربة الموعودة من العالم المتقدم الذي تباعد بيننا وبينه المسافات الطوال.

عموما فإن إستراتيجية كهذه تجد نفسها ملزمة بالتحرك في اتجاهين أساسيين؛ **أولهما**: حركة باتجاه المسلمين أنفسهم. **وثانيهما**: حركة باتجاه الغير. ويقينا فإن أية محاولة للتخطيط تحاول أن تتجاوز إحدى هاتين الحركتين سوف تكون ناقصة ولن تأتي بثمارها الموعودة.

وفي كلتا الحالتين فإن مبدأ (التعارف) الذي دعا إليه كتاب الله سبحانه بقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحُجُرات:١٣]، يمكن أن يكون محور الحركة في الاتجاهين معا.

على مستوى الأمة الإسلامية فإن وحدتها الثقافية لا تستدعي بالضرورة تجاوز أو إلغاء خصوصيات الشعوب والجماعات التي تنتمي إليها، والتي شكلتها وغذّتها مؤثرات البيئة ورصيد التاريخ؛ ذلك أن الوحدة والتنوع لا تمثل في حضارتنا الإسلامية نقيضين متضادين بقدر ما هي عامل دفع وإغناء لهذه الحضارة، ومصدر خصب لإرفادها بالمزيد من المعطيات المتنوعة التي تصب في نهاية الأمر في بحر شخصيتها الكبرى فتزيدها تألُّقا وتماسكا وعطاءً ووضوحا، ما دامت هذه الشخصية تستمد مكوناتها الأساسية ونقاط شدّها وتوحّدها، ليس من المتغيرات البيئية والتاريخية، ولكن من مرتكزات عقيدتها الثابتة، المكتملة، المحفوظة الحدود والملامح في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وممارسات الأجيال الإسلامية الموصولة عبر الأماكن والأزمان.

إن أية محاولة لتوحيد المسلمين ثقافيًّا، من خلال وضع خارطة عمل، أو إستراتيجية موحدة، يجب أن تضع في حسبانها ثنائية كهذه تنطوي على الوحدة والتنوع، والثابت والمتحوّل، والصلب والمرن، والدائم والمتغير.. أي- في نهاية الأمر- على المرتكزات العقيدية والممارسات الحيوية.. معا..

هذه الثنائية التي يمكن - إذا أسيء تقديرها حق قدرها - أن تكون أداة للفصل والتباعد، والعزلة والقطيعة، وأن تزيد المسلمين تمزقا على تمزّقهم، يمكن- كذلك- إذا أحسن توظيفها في إستراتيجية العمل أن تكون وسيلة فاعلة للتوحد المرتجى الذي يلمّ أشتاته المتنوعة المتغايرة على الأصل العقائدي الثابت الكبير.

أما على مستوى التحرك باتجاه الغير فإنه يكاد يخضع للمبدأ نفسه: احترام التغاير، ومحاولة الإفادة منه بتحقيق مزيد من التعارف بين المسلمين وبين ثقافات ومعطيات الأمم الأخرى، وبخاصة الثقافة الغربية المعاصرة.

ومن فضول القول التأكيد على أن تعاملا كهذا بين المسلمين والغير لن يكون

تعاملا ندّيًّا أو متكافئا، لا يئول إلى الذوبان أو الاندماج أو فقدان الشخصية، ما لم يتحقق المسلمون أنفسهم بالحركة الأولى: وحدتهم الثقافية التي تعطيهم مكانا متميزا على خارطة العالم وتمنحهم ثقلهم النوعي وتجعل عبورهم للتعامل مع الآخرين مأمون العواقب، ذا نتائج إيجابية تعزّز شخصيتهم ولا تلغيها.

ومرة أخرى، فإن الثقافة الإسلامية يمكن أن تمارس ها هنا دورا مؤثرا في العالم كله، يزيدها- في الوقت نفسه- قدرة على التأصل والتوحد والتميز.

ذلك أن هذه الثقافة المستمدة في أساسها من أصولها الإسلامية والمتأثرة، بدرجة أو بأخرى، بالمنظور العقدي لهذا الدين، تختلف عن سائر الثقافات الأخرى بجملة خصائص لا تكاد تجتمع إلّا في إطارها، وأبرز هذه الخصائص ولا ريب قدرتها الفذّة المرنة على جمع سائر الثنائيات التي بعثرتها المذاهب والثقافات الأخرى، واستطاعت هذه الأمة، بقوة عقيدتها، أن تجمع بينها وتسوقها في إطار واحد خدمة للإنسان والجماعة البشرية على السواء.

إننا نجد مثلا ثنائيات من مثل المادة والروح، والجسد والوجدان، والحس والعقل، والظاهر والباطن، والحضور والغيب، والقدر والاختيار، والضرورة والجمال، والطبيعة وما وراءها، والسكون والحركة، والوحدة والتنوع، والمنفعية والأخلاقية، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، والوحي والتجريب، والدنيا والآخرة، والنسبي والمطلق، والفناء والخلود.. ثنائيات كهذه تتلاءم وتتناغم وتندمج في كيان الثقافة الإسلامية، بينما هي في سائر الثقافات الأخرى في حالة اصطراع وتضاد، وهي في هذه الحالة تشكل عصب المأساة التي يعاني منها الغير والتي يجد نفسه مضطرا - أكثر فأكثر - للبحث عن بدائل لها، وتلك هي فرصة الثقافة الإسلامية للتحقّق بالتواصل المؤثر مع الآخرين.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالإستراتيجية الموعودة فإنها يتحتم أن تقيم المزيد من الجسور بيننا وبين الآخرين، ليس فقط بتنسيق طرائق الأخذ عن الغير من أجل إغناء شخصيتنا الثقافية، ولكن أيضا بإغراء الغير بالأخذ عن ثقافتنا، أو محاولة التعرف عليها على الأقل بأكبر قدر من الجدّية والحرص فيما يمنح العلاقة بين سائر الأطراف

تكافؤها وندّيتها، وقدرتها على التميز والبناء، وإسهامها الفعّال في بناء مستقبل الإنسان في هذا العالم.

ويكفي أن نتذكر هنا جانبا من أقوال واستنتاجات مفكري الغرب المعاصرين لكي يتأكد لنا أن تأصيل وحماية هويتنا الثقافية تعدّ ضرورة ليس في إطار عالم الإسلام وحده، ولكن على مدى العالم كله.

في هذه الحالة فإن هذا الدين سيعود، كما يقول المفكر القانوني الفرنسي مارسيل بوازار (إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع)[١]، وحينذاك - أيضا- سيكون (في وسع العالم الإسلامي، من بين عوالم أخرى، أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب)[٢].

إن الإسلام، كما يقول الرجل: (دين حي وديناميكي، وهو يحاول أن يجد مجلي لقوته الداخلية للاشتراك في الحياة الدولية المعاصرة، وفي مساهمته أن تكون جوهرية، لا لأنه يملك فقط تجربة عمرها أربعة عشر قرنا في العلاقات بين الشعوب، بل لأنه ينقل- كذلك- رؤية أخلاقية للغاية من القانون الدولي معتبرا أن الإنسان في التحليل الأخير رعية من رعايا النظام وهدف أخير من أهدافه)[٣].

وهنا بصدد البعد الأخلاقي لمشاركة الإسلام العالمية لم يفت بوازار أن يشير إلى أن التقدم العلمي المادي لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية، فتوجهه بالتالي لصالح الإنسان، ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المادي يمكن للإسلام أن يمارس (دورا حقيقيًّا في تنظيم العالم المعاصر)[٤].

وأهمية المشاركة الإسلامية تبدو أيضا -في نظر بوازار- في التوازن الذي يمنحه الإسلام، بما أنه تعبير عن روح ديني، لمسيرة المجتمع البشري بين التقدم المادي

(١) إنسانية الإسلام، ص ٤٣١، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت – ١٩٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٢٦ – ٤٢٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٦٩.

(التقني) وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة، وخاصة أن الانخراط في المجتمع التكنولوجي، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية، لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله، متوجبا عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل.. [١].

وإذ يؤكد بوازار ما يقدمه القرآن الكريم في هذا السياق من (ثقة مطمئنة وحافز قوي في وقت معا) فإنه يحذّر من (أن إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية) لا تجيء به الأماني والأحلام، إنما هو (رهن بما يصنعه المسلمون أنفسهم)[٢].

ويرى الباحث الأمريكي المعاصر كويلر يونغ (أنه ليس من المعقول لثقافة حية كثقافة الإسلام.. ألّا يكون لها تأثير بالفعل أو بالقوة)[٣]، في التشكل الحضاري للمستقبل. وهو يحذّر من (أن عالمنا هذا الذي مزقته الجماعات المحتربة والذي لا يعرف حكما أعلى بيده مصير الإنسانية، ليجدر به تصوّر الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسها الإسلام، ولا شك أن هذه الوحدة- في أحسن صورها- سيكون لها أثرها في الحاجات الروحية للناس في أيامنا الحاضرة) [٤]، وثمة (نصيب آخر من الفضل للإسلام)قد يكون متفرعًا عن سابقه، ذلك (هو ما حققه من التسامح بين أجناس البشر.. إن الإسلام- في إطار الأخوة الإسلامية- يستطيع أن يرى المسيحية نجاحًا حقيقيًّا فعليًّا في ميادين التسامح البشرى)[٥].

هذه المشاركة يؤكدها المستشرق الفرنسي درمنغهم بغية تحقيق التواصل بين الغرب والشرق، وإرفاد لعالم المستقبل (بأذخار العالم القديم)[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ٣٨٩.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، جمع وتقديم محمد خلف الله، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية ١٩٦٢م، ص ٣٥٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٦) حياة محمد ﷺ ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٤٩، ص ٣٧١، ٣٧٢.

ويراها زميله إتيين دينيه تُبَشِّرُ (بمستقبل حافل بأعظم الآمال وأعلاها شأنًا، وبإسهام حضاري فعال، وبتكشّف متزايد لِسَنَا الإسلام الحقيقي حيث ستعرف الأمم المختلفة حقيقته التي حجبت عنها زمنًا، وسيمدّ الكل أيديهم لمحالفته، متنافسين في ذلك؛ لأن قيمته قد خبروها وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التي لا حدّ لها ولا نفاد)[١].

أما المؤرخ البريطاني المعاصر مونتجمري وات فيركز استنتاجاته حول المشاركة الأخلاقية للإسلام (تلك المبادئ التي تكون إضافة فعلية لتحسين حالة العالم) [٢]، وهو يؤمل في أن المسلمين سوف ينجحون، رغم المصاعب، (في جهدهم للتأثير على الرأي العام العالمي، على الأقل فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية. وربما أمكنهم في ميدان الأفكار الدينية الأوسع أن يساعدوا على إغناء العالم؛ لأنهم احتفظوا بقوة كبرى في التعبير عن بعض الأفكار كحقيقة الله، تلك الأفكار التي أهملت ونسيت في كثير من الطوائف والأديان الأخرى الموحدة)[٣].

ويقدم المفكر الفرنسي المسلم روجيه (رجاء) جارودي في كتابه (وعود الإسلام) ملاحظات خصبة عن المشاركة العالمية لهذا الدين. إن عنوان الكتاب يحمل بعدا مستقبليًّا، وإن ملاحظات صاحبه حول مشاركة الإسلام العالمية تتحرك على عدد من المحاور أهمها ولا ريب: توازن الإسلام ووسطيته، قيمه الأخلاقية، ثم رؤيته الشمولية وقدرته الفذة على منح المغزى لمسيرة الحياة البشرية في هذا العالم.

ولن يتسع المجال ها هنا لتقديم الشهادات على هذه المحاور، ولكننا نجد من الضروري تذكّر السؤال الذي طرحه جارودي في كتابه هذا: (ماذا يستطيع الإسلام أن

---

(١) محمد رسول الله ﷺ: ترجمة د. عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، الشركة العربية، القاهرة الطبعة الثالثة، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) محمد ﷺ في المدينة: تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت-بدون تاريخ، ص ٥٠٨، ٥٠٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٠٩.

يقدم لنا ليعيدنا للإجابة على المسئوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم؟) وأن نتذكر- كذلك- جوابه: (أن المشكلة كونية، ولا يمكن للجواب ألّا أن يكون على المستوى الكوني)[١].

وهكذا تصير مشاركة الإسلام القادمة أكثر من ضرورية، تصير أمرا حتميًّا لأنها لن تدخل الساحة لكي تعالج هذه الجزئية أو تلك، أو لكي تمنح العلاج لهذه المشكلة المحدودة أو تلك، كلَّا وإنما لكي تعيد تصحيح الحياة البشرية بما يردّ إليها قيمتها الحقة، ويمنحها هدفًا ومغزى، ويربطها بالإنسان نفسه، محققًا التناغم والانسجام بين أقطاب الكون بعد أن أقام الفكر الوضعي بينها الأسلاك الشائكة، وكهربها بالكراهية والبغضاء. وهكذا يغدو(بعث الإسلام كبعث الإنسانية بأكملها)[٢].

إنها إذن (قضية مستقبلنا، قضية مستقبل جميع البشر)[٣].

وثمة ما يستوقفنا في (وعود الإسلام).. شهادة على غاية الأهمية لأنها تتضمن قاعدة الدور الإسلامي المنتظر ومنطلقه، بل مفتاح عقيدته ورؤيته للعالم..(لا إله إلا الله) هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي[٤].

إن جارودي، الذي انتقل أخيرا إلى الإسلام، ليعرف جيدًا ما يقول، بل إنه ليؤشر بالوضوح المطلوب على أس الأسس في بنيان الإسلام وفي إسهاماته العالمية كذلك. وهو يعرف – أيضا- أن (لا إله إلا الله) تعني أول ما تعني إعلان الحرب على الوثنية وإقصائها.. ليست وثنية قريش وحدها، ولكنها وثنية العالم كله، وثنية العالم المعاصر على وجه التحديد، فها هنا، حيث تأخذ برقاب الإنسان وتفصله عن ارتباطاته بالكون، وبمصيره، يغدو شعار (لا إله إلا الله) بكل جذريته، وقدرته على التغيير، وحربه التي لا هوادة فيها للوثنية بكافة صيغها ورموزها وأشكالها وطقوسها، ضرورة المصير

(١) وعود الإسلام: ترجمة ذوقان قرقوط، الوطن العربى، القاهرة، بيروت-١٩٨٤، ص ٦٧.
(٢) المرجع السابق، ص ١٧٩.
(٣) المرجع السابق، ص ١٨٧.
(٤) المرجع السابق، ص ٢١٧.

الإنساني وحتميته، فها هي ذي الصنمية، كما يسميها جارودي (تفرخ وتتكاثر في مجتمعاتنا: صنم النموّ، صنم التقدم، صنم التقنية العلموي، صنم قوة الأسلحة والجيوش، بمحذوراتها جميعًا ومحرّماتها وبرموزها المقدسة وبطقوسها. كلّا، يذكرنا الإسلام (لا إله إلا الله)، الله أكبر، وإننا لنعرف بالتأكيد ما لهذا اليقين في العقيدة من قوة هدم وتحرير.. فالحوار هكذا يمكنه أن يساعدنا على ابتعاث خميرة عقيدتنا الحية فينا، تلك التي تستطيع نقل الجبال من مواضعها..)[١].

حقًّا، إن (الإسلام يحمل بذور تغيير جذري على مستوى الإنسانية)[٢].

٤- نحن والآخر: التاريخ شاهدا

ثمة- أخيرًا- ما يرتبط بالموضوع الذي بين أيدينا أشد الارتباط: ما يقال عن التعامل مع (الآخر).. المسلم مع غير المسلم.

وفي حالة كهذه ليس ثمة أكبر شهادة من استدعاء الوقائع التاريخية لكي تعكس الفضاء الحرّ الواسع الذي منحه الإسلام على مستوى السلطة أو الجمهور لغير المسلمين، وبالإيجاز الذي تتطلبه صفحات كهذه.

قدم عصر الرسالة إزاء أهل الذمة – يهودًا ونصارى- موقفًا عقديًّا وتاريخيًّا أسست من خلاله تقاليد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ووضعت أصولها ونظمت صيغها. وعندما مضت حركة التاريخ صوب العصور التالية مضت معها هذه التقاليد والأصول والصيغ تعمل عملها في مجرى العلاقات الاجتماعية، وما حدث بين الحين والحين من خروج عليها لم يعدُ أن يكون شذوذًا عن قاعدة ازدادت رسوخًا بمرور الأيام.

ما الذي أراد رسول الله ﷺ أن يقوله وينفذه إزاء غير المسلمين من أهل الكتاب؟ بمقدور القارئ أن يرجع إلى مصادر السيرة للعثور على الجواب الشامل لجزئياته

---

(١) وعود الإسلام: ٢١٧-٢١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٦.

وتفاصيله[١]. ولكننا نود أن نشير مجرد إشارة إلى العهد الذي كتبه الرسول ﷺ في أعقاب غزوة تبوك (في العام التاسع للهجرة) لنصارى نجران، ذلك العهد الذي يقدم نموذجًا للعدل والسماحة والحرية الدينية والاجتماعية، حيث لم يفرض عليهم فيه سوى جزية عينية متواضعة، وقد جاء فيه: (.. ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم، لا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته، ولا واقفًا عن وقفانيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.. ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم الآخر. وعلى ما في الصحيفة جوار الله وذمة النبي ﷺ أبدًا حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم)[٢]. وقد دخل يهود نجران أيضًا في هذا الصلح[٣].

كما نود أن نشير إلى العهود التي كتبها ﷺ لعدد من التجمعات اليهودية في شمال الجزيرة، بعد غزوة خيبر(٧ هـ) والسنين التى تلتها، إذ بعث إلى بني جفتة بمقنا القريبة من أيلة على خليج العقبة: (.. فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم، لا ظلم عليكم ولا عداء، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه.. وإن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وصادرت عروركم (مراكبكم) واغتزل نساؤكم، وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة، فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله...).

---

(١) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، الفصلان الثامن والتاسع، بيروت: مؤسسة الرسالة ودار النفائس، ١٩٧٤م.

(٢) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبرى، ١ تحقيق إدوارد سخاو ورفاقه، أبريل، ١٣٢٥هـ / ٢٣٦، ٨٤-٨٥. والبلاذري، فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦-١٩٥٧ / ١ ٧٦-٧٨. واليعقوبي: تاريخ، تحقيق صادق بحر العلوم، النجف: المكتبة الحيدرية، ١٩٦٤م. ٢/ ٧١-٧٢.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان ١/ ٧٨.

وكتب لجماعة أخرى من اليهود تدعى (بني غاديا): (أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء)، كما كتب لبني عريض كتابا آخر يحدد فيه ما عليهم أن يدفعوه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وعدم ظلمهم إياهم [1]. **وكتب لأهل جرباء وأذرح من اليهود**: (أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان ومن لجأ إليهم من المسلمين)[2].

وبذلك تمكن الرسول ﷺ من تحويل هذه التجمعات اليهودية إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية، ويحتمون بقوتها وسلطانها، ويتمتعون بعدلها وسماحتها.

ولقد ظل اليهود يمارسون حقوقهم في إطار الدولة الإسلامية لا يمسهم أحد بسوء، وعاد بعضهم إلى المدينة بدليل ما ورد عن عدد منهم في سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي. وهناك الكثير من الروايات والنصوص التاريخية التي تدل على أن الرسول ﷺ كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح، كما أنه أوصى عامله معاذ بن جبل (بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم). وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين؛ إذ لم يكلفوا إلا بدفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم[3].

وجاء الراشدون لكي يشهد المجتمع الإسلامي تنفيذا في العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم لا يقل سماحة وانفتاحا عما شهده عصر الرسالة. فلقد كان العصر الجديد عصر الفتوح والامتداد الإسلامي، وكانت مساحات واسعة من الأرض التي بلغها الإسلام تضم حشودا كبيرة من اليهود والنصارى والمجوس والطوائف الدينية الأخرى. فلقد أصبح المجتمع الإسلامي بحركة الفتح هذه مجتمعا عالميًّا ضم جناحيه على أعداد كبيرة من الأديان والجماعات والمذاهب والفرق والاتجاهات، فهل تمكن المسلمون من الاستجابة لتحديات التنوع المذهبي والديني في مجتمعهم العالمي الجديد؟

---

(١) ابن سعد، الطبقات ١/ ٣٨-٤٠.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٣٨.

(٣) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ٣٥٨.

يقول السير توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام[1] الذي يتضمن تحليلا مدعما بالوثائق والنصوص للصيغ الإنسانية التي اتبعها الإسلام في تعامله مع (الآخر):

(يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الإسلام)[2].

ويقول: (إن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شيء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها أحد منهم. ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي، لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين)[3].

وتاريخ النساطرة الأكثر انتشارا في الأرض الإسلامية يكشف، كما يقول أرنولد: (عن نهضة رائعة في الحياة الدينية وعن نواحي نشاطهم منذ أن صاروا رعية للمسلمين. وكان أكاسرة الفرس يكرمون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرى، إذ كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الأكاسرة، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة، وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين. ولكن الأمن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء قد مكنهم من أن يسيروا قدمًا في سبيل أعمالهم التبشيرية في الخارج فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منهم إلى مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي، وفي العصر نفسه تقريبا رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا، حتى إذا جاء القرن

(١) **توماس أرنولد**: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٧١م.

(٢) المرجع السابق، ٦٥.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ٦٨.

الحادي عشر كانوا قد جذبوا عددا كبيرا ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار. وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين، إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواء، وكانت فضلا عن ذلك تصدهم عن أن يضطهد بعضهم بعضا. وفي القرن الخامس (الميلادي) كان برصوما – وهو أسقف نسطوري- قد أغرى ملك الفرس بأن يدبر اضطهادا عنيفا للكنيسة الأرثوذكسية، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلا إلى مبادئهم. ويقال: إن عددًا يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية مع عدد من (المدنيين) قد ذبحوا في هذا الاضطهاد.

وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس بعد أن غزا هرقل بلاد فارس وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين. ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهدا في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس. مثال ذلك أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيرا إلى أصحابها الشرعيين بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكيتهم لها[(١)].

ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام في مصر لم يكن راجعا إلى الاضطهاد ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية، وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم وسمح لهم بإعادة كنائسهم.. وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال، وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أعفي الرهبان من دفع الجزية ومنحوا امتيازات معينة) [(٢)].

---

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ٨٦-٨٨.

(٢) المرجع السابق، ١٣٠.

وعلى مدى العصور التي أعقبت العهد الراشدي، حيث ازداد المجتمع الإسلامي تعقيدا واتساعا، وحيث أخذت منحنيات الإبداع الحضاري تزداد صعودا واطرادا وتزداد معها المؤسسات الإدارية تضخما ونموا، أخذ الموقف من غير المسلمين يعد بالمزيد من صيغ التعامل الإنساني أخذا وعطاءً. لقد فتح المسلمون- قواعد وسلطة- صدورهم لغير المسلمين يهودا ونصارى ومجوسا وصابئة، وأتاحوا للعناصر ذات الكفاءة منهم احتلال مواقعها الاجتماعية والوظيفية في إطار من مبدأ تكافؤ الفرص لم تعرفه أمة من الأمم عبر التاريخ. لقد أسهم غير المسلمين في صنع حضارة الإسلام وإغنائها، دونما أية عقد أو حساسيات من هذا الجانب أو ذاك، كما فتح الإسلام الطريق أمامهم للوصول إلى أعلى المناصب بدءًا من الكتابة في الدواوين وانتهاءً بمركز الوزارة نفسه، وأتيح لأبناء الأديان والمذاهب الأخرى أن يتحركوا في ساحات النشاط الاقتصادي والمالي بحرية، فنموا ثرواتهم وارتفعوا بمستوياتهم الاجتماعية بما يوازي قدراتهم على العمل والنشاط، وملئوا بهذا وذاك مساحة واسعة في ميدان النشاط الاقتصادي والمالي، جنبًا إلى جنب مع المواطنين المسلمين، بل إن بعض الأنشطة المالية والاقتصادية كادت تصبح من اختصاص أهل الكتاب، تمامًا كما كانت الترجمة في المجال الثقافي من نصيبهم، وكما كانت بعض الوظائف الإدارية من نصيبهم كذلك، والوقائع كثيرة: تيار من المعطيات التاريخية نفذت في ساحة المجتمع الإسلامي عبر القرون الطوال وعلى مختلف الجبهات ووفق سائر الاتجاهات.. يكفي أن نحيل المتابعين إلى بعض شواهدها فحسب[1].

---

(١) **انظر على سبيل المثال:** فيليب حتى: تاريخ العرب المطول،١/ ٣٠١-٢،٣٠٢/ ٤٣٢-٤٣٨، الطبعة الرابعة، بيروت: دار الكشاف، ١٩٦٥م. وول ديورنت: قصة الحضارة، ١٣/ ١٣٠،١٧-١٣٣،١٣١، ٢٩٧، ٣٧٣، ترجمة محمد بدران وآخرين، الطبعة الثانية، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤-١٩٦٧م. وترتون: أهل الذمة في الإسلام، ٤٣، ١٥٨-١٥٩، ١٦٠-١٦١، ترجمة حسن حبشي، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م. وتوماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥، ٢٧، ٩٤، ٩٩. والدوميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ١٢٣،٨١، ٤٥٤، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار، القاهر: دار القلم، ١٩٦٢م. وبارتولد: تاريخ الحضارة=